كل مكان خافياً عن عيوننا، ماراً بنا دون أن نراه، إن الناس يضطربون أبداً دون أن يعرفوا شيئاً على الإطلاق، عماة عن رؤية الأشياء التي تستحق إعجابهم، يعوزهم ذلك الزمن والرغبة أيضاً. كم نستطيع أن نحصل من ا لفرح لو عرفنا غنى الأرض، وكم من الأشياء الرائعة تعيش على سطحها، وهذه الأشياء جميعاً هي لسائر الناس، وكل هو للجميع على حد سواء»[٤٠]. إن وعي العجوز «بيلاجيا» ـ كما يبدو من خلال هذا النص ـ لا يكتفي باحتواء الآراء التي كانت تسمعها تتردد على ألسنة «الرفاق» من أصدقاء ابنها، ولكنه يتعدى إلى الإسهام في الابتكار ورؤية الأمور والأشياء رؤية مستقلة. وليس من شك في أن القارىء يحس بقوة بأن غوركي هو الذي يتحدث لا الأم البسيطة في تفكيرها وإدراكها.

ونجد غوركي لا يتورع عن تجريد الأم العجوز من عاطفتها الدينية بالإضافة إلى تحميل شخصيتها فوق ما تحتمل، فهو يصف في البداية مدى إيمانها وترددها على الكنيسة وانزعاجها من «ريبين» حين يصارحها بتمرده على الدين والكنيسة، وضرورة تغيير الإله الذي أصبح ـ في رأيه ـ محاطاً بالأكاذيب والافتراءات، مستأجراً لخدمة أغراض الأغنياء[٤١]، ولكنه يحولها فيما بعد بكل سهولة ويسر إلى ملحدة لا تتردد في إعلان موافقتها على القتل والعنف من أجل «القضية» واتخاذهما وسيلة تبرر الغاية، وذلك حين اغتال أحد الرفاق جاسوساً يعمل لصالح السلطة والأغنياء: «قل ما بدا لك أن تقول يا بافل، فأنا أعلم أن قتل الإنسان خطيئة، ولكني لا أعتبر أحداً مذنباً على الإطلاق وإني أرثي لأشعيا، فقد كان رجلاً متداعياً منحلاً. وعندما نظرت إليه اليوم تذكرت كيف هدد وتوعد.. لكن ذلك لم يدفعني إلى الحقد عليه أو الفرح لموته. لقد رثيت له بكل بساطة، وأنا الآن.. إني لا أحس حتى الإشفاق»[٤٢] وكما تقبلت «بيلاجيا» فكرة القتل والعنف فإنها تتقبل أيضاً فكرة الاستيلاء على الكنائس المليئة بالفضة والذهب «اللذين لا حاجة لله بهما»[٤٣]، وتوزيع كل الأموال على الفقراء واليائيسن. فليس من شك في أنه من الصعب على «بيلاجيا» أن تهضم هذه الأفكار الخطيرة، وهي العجوز الشديدة الإيمان، دون